

## حلب في شعر شعرائها زمن الأيوبيين

د. أحمد فوزي الهيب<sup>(\*)</sup>

ظلت حلب على مدى الأزمان عقبة كأداء مستعصية أمام الطامعين، وحباً تخفق به قلوب العاشقين، وأغنية تصدح بها حناجر المغنين، وسفراً عظيماً كتبت فيه الحضارة العربية الإسلامية أسمى صفحاتها، وقصيدة عصماء يزين بها كبار الشعراء دواوينهم. نجد ذلك واضحاً في دواوين شعراء سيف الدولة الحمداني قاهر الروم، وفي مقدمتهم شاعر العربية الأول المتنبّي وأبو فراس الحمداني وغيرهما،

كما نجد ذلك جلياً أيضاً في شعر شعرائها، من أبنائها أو من غيرهم الذين اتخذوها موطناً لهم، زمن صلاح الدين الأيوبي وأبنائه من بعده، صلاح الدين قاهر الصليبيين ومحرر القدس من رجسهم، والذين قال يوم فتحت له قلعة حلب ذراعها، وصعد إليها حامداً لله تعالى معبراً عن سعادته بها: "ما سررت بفتح قلعة أعظم سروراً من فتح حلب"<sup>(1)</sup>، ومثلما سعد هو بها سعدت هي وأهلها به، وعبر عن ذلك الشعراء بعامّة وشعراؤها بخاصة، ومنهم سعيد بن محمد الحلبي بقوله<sup>(2)</sup>:

وصبّحت شهباء العواصم مُصلّاتاً	قواضب عزم لا يقلّ شهيرها
فأطيت منها غارباً فيك راغباً	وعاد يسيراً في يديك عسيرها
وأوطأت منها أخصيك تنوفةً	يعزّ على الشعري العبور عبورها

<sup>(\*)</sup> اتحاد الكتاب العرب — حلب.

<sup>1</sup> البداية والنهاية، أبو الفداء، مطبعة السعادة، مصر 1932، 313/12.

<sup>2</sup> الروضتين، أبو شامة، ت: محمد حلمي محمد أحمد، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر 1956، 45/2.

وردٌ إليها رَوحٌ عدلِكَ روحَهَا وكانت رَمِيماً لا يُرجى نشورها<sup>(3)</sup>

وسأكتفي هنا بالحديث عن الشعر الذي قاله فيها، وفيها فقط، شعراؤها زمن الأيوبيين، مادحين لها أو واصفين لما فيها، أو معبرين عن مشاعرهم اتجاهها في حلهم فيها، أو متحدثين عن أشواقهم في ترحالهم عنها، سواء أكانوا من أبنائها أم من الذين طاب لهم المقام فيها، فاتخذوها لهم موطناً وسكناً.

أعجب الشعراء بمعالم حلب الكثيرة الغنية، وأهمها قلعتها الفريدة المنيعة السماء التي أخافت صروف الدهر وأخجلتها، وسخرت من الزمان ومعاوله وكسرتها، وقهرت الملوك القاهرين، وردتهم على أديارهم مهزومين، قال ابن أبي منصور، علي بن ظافر<sup>(4)</sup>:

وفسيحة الأرجاء سامية الذرى	قلبت حسيراً <sup>(5)</sup> عن غلاها الناظرا
كادت لفرط سموها وعلوها	تستوقف الفلك المحيط الدائرا
وردت قواطنها المجرة منهلاً	ورعت سوابقها النجوم أزارا
شماء تسخر بالزمان وطالما	بشواهق البنيان كان الساخرا
ويظل صرف الدهر منها خائفاً	وجلاً فما يمسي لديها حاضرا
ويشوق حُسن روائها مع أنها	أفنت بصحتها الزمان الغابرا
فلأجلها قلب الزمان قد اتثنى	قلقاً وطرق الجو أمسى ساهرا
غلبة غلب الملوك قطالما	قهرت من اغتصب الممالك قاهرا

ووصف محمد بن محمد بن علي أبراجها العالية الحصينة وسورها المنيع<sup>(6)</sup>:

طلعت نجوم النصر من أبراجها	فبروجها تحكي بروج سمائها
والسور باطنه ففيه رحمة	وعذاب ظاهره على أعدائها

وأعجب عبد الرحمن بن النابلسي بالميدان الأخضر الذي جدده الملك الظاهر حتى غدا مرجاً من مروج الجنة، ليكون مجرى للخيول وملعباً للكرة<sup>(7)</sup>:

<sup>3</sup> مصلتاً: مجرداً، قواضب: سيف، شهيرها: مسلولها، الغرب: ما بين الظهر والعنق، تنوفة: فلاة، الشعري: كوكب، رُوح: رائحة.

<sup>4</sup> الأعلام الخطيرة، ابن شداد، ت: دومنيك سودريل، المعهد الفرنسي، دمشق 1956، 170/1.

<sup>5</sup> حسيراً: كليلاً.

<sup>6</sup> إعلام النبلاء، الطباخ، المطبعة العلمية، حلب 1343هـ، 548/3.

<sup>7</sup> الأعلام الخطيرة 167/1.



وكان جبل الجوشن المطل على حلب مغنى للشعراء، وصفوه وتغنوا به وتشوقوا إليه، مثل ابن نوفل الذي سفح الدمع شوقاً لنفحة تأتيه منه رطبة بماء قويق، ليسألها عن أحبابه الغالين في حلب، وليطمئن عليهم، ويتلذذ بذكرهم والحديث عنهم<sup>(11)</sup>:

صَبُّ بِأَنْوَاعِ الْهَمُومِ مَوَكَّلُ  
وَأَقْلَهُهَا لَا يُسْتَطَاعُ فَيُحْمَلُ  
فَدُمُوعُهُ لَا تَأْتِلِي مَسْفُوحَةً  
لَوْ مِيزَ بِرَقٍّ أَوْ حَمَامٍ يَهْدِلُ  
أَوْ نَفْحَةٍ نَقَلَتْ لَهُ مِنْ جَوْشَنٍ  
وَهَضَابِهِ الْأَخْبَارُ فَيَمَّا تَنْقَلُ  
تَأْتِي وَذِيلُ رَدَائِهَا مِنْ مَاءٍ وَرِ  
دِ قَوَيْقِهِ عَطَرُ النَّسِيمِ مُصْنَدِلُ  
فَتَظَلُّ وَهُوَ مَكْرَرٌ تَسْأَلُهَا  
تَتَلُو عَلَيْهِ وَذُو الصَّبَابَةِ يَسْأَلُ  
فَتَعِيدُ جَامِحَةً ذُلُولًا طَائِعَةً  
وَالشَّوْقُ لِلصَّعْبِ الْجَمُوحِ مَذَلُّ

كما تغنى أيضاً ابن سعدان برقة نسيم الجوشن العليل وتلذذه بشمه واستنشاقه<sup>(12)</sup>:

وَاللَّهِ مَا خَفَقَ النَّسِيمُ بِأَرْضِكُمْ  
إِلَّا طَرِبْتُ مِنَ النَّسِيمِ الْخَافِقِ  
وَإِذَا الْجَنُوبُ تَخَطَّرَتْ أَنْفَاسُهَا  
مِنْ سَفْحِ جَوْشَنٍ كُنْتُ أَوَّلَ نَاشِقِ

ورجا ابن العجمي أحبابه أن يخلوا بينه وبين نسيم الجوشن، ليحمله أشواقه وسلامه إليهم، وليسرح طرفه في ملاعب صباه في شعبه وهضابه الخضراء<sup>(13)</sup>:

فَخَلَّوْا نَسِيمَ الرِّيحِ مِنْ سَفْحِ جَوْشَنٍ  
بِمَا فِيهِ مِنْهُ نَسِمةٌ وَهَبُوبُ  
أَحْمَلُهَا شَوْقًا سَلَامِي إِلَيْكُمْ  
فَيَعْبِقُ مِنْهَا لِلْجَنُوبِ جَيُوبُ  
فَيَسْرَحُ طَرْفِي فِي ثَنَائِيَاتِ جَوْشَنٍ  
بِرُوضِ رِعَاهِ الْعَزِّ وَهُوَ خَصِيبُ

وذكر محمد بن محمد الخضري معالم أخرى من حلب، مثل بطيাস وحيلان والميدان وغيرها، كما أقسم ألا ينسى ساعات الأنس فيها والرياض والأشجار والمنازل مدى الحياة<sup>(14)</sup>:

كَمْ فِيكَ مِنْ يَوْمٍ وَمِنْ لَيْلَةٍ  
مَرَّ لَنَا مِنْ غُرَرِ الدَّهْرِ  
مَا بَيْنَ بَطْيَاسٍ وَحِيلَانَ وَالْـ  
مِيدَانِ وَالْجَوْشَنِ وَالْجَسْرِ  
مَنْزَلُ لَا زَالَ خَلْفُ<sup>(15)</sup> الْحَيَا  
عَلَى رِبَاهَا دَائِمُ الدَّرِّ

<sup>11</sup> الأعلام الخطيرة 1/168.

<sup>12</sup> معجم البلدان 2، ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1979، 417/2.

<sup>13</sup> إعلام النبلاء 557/3.

<sup>14</sup> الأعلام الخطيرة 1/166.

تالله لا زلت لها ذاكراً  
وكيف ينساها فتى صيغ من  
وكل يوم مرّ في غيرها  
يا ليت شعري هل أراها وهل  
وأعجب ابن سعيد أيضاً بمتنزهات حلب التي تسر العين والقلب بتغريد طيورها وأزهار  
غصونها التي تتمايل للعناق<sup>(16)</sup>:

كَمْ بِهَا مَرَّتَ لَطْرَفٌ وَقَلْبٌ      فِيهِ تُسْقَى الْمَنَى بِكَأْسِ دِهَاقٍ (17)  
 وَتَغْفِي طَيَّورَهُ لَارْتِيَا ح      وَتَنْثِي غَصْبُونَهُ لِلْعَنَاقِ  
 ثُمَّ دَعَا لَهَا وَلِجَبَلِ الْجَوْشَنِ وَمَنْتَزَرِهِ بِطَيَّاسٍ وَالسَّعْدِيِّ بِالسُّفْيَا (18):

لا خلا جوشن وبطياس والسع  
وكذلك فعل ابن سعدان<sup>(20)</sup>:

يا ديار الشام حيّاك الحيا  
وتمشّت في نواحي حلب  
وسقى ساحتك الغيثُ الهمولُ  
شارداتُ الروض والساري البليل

هذا الحب الشديد لحلب من أبنائها، ومن الذين نزلوا فيها، وآثروها على بلادهم، فاتخذوها موطناً ومقاماً، جعلهم جميعاً يشتاقون إليها إذا ما ابتعدوا عنها شوقاً شديداً، غنوه بأشعار رقيقة مواراة بالآلام الشوق والعاطفة الصادقة، مثل عيسى بن سعدان الذي ابتعد عن حلب فاشتاق إليها فمثلها له البرق لامعة أمام ناظريه<sup>(21)</sup>:

يَا بَرَقَ كَلِمًا لَاحَ عَلَيَّ      حَلَبَ مَثَلَهَا نُضِبَ عِيَانِي

<sup>15</sup> هو للناقاة كالضرع للشاة.

16. نفح الطيب 326/2.

17 ممتلئة.

<sup>18</sup> نفج الطيب 326/2.

19-کریم.

<sup>20</sup>الأعلاق الخطيرة 165/1.

<sup>21</sup> معجم البلدان 307/1.

كما ذكر أيضاً في قصيدة أخرى له تلعات حلب الخضراء والأطلال الدارسة بسفح الجوشن

مشتاقاً، واستتجد بنسيم منها يطفئ نيران آلام بعده عنها الذي طال<sup>(22)</sup>:

وحبذا ظلّ بالسفح من ظل

يا حَبِذا التَّلْعَاتُ الْخُضْرُ مِنْ حَلَبٍ

من سفح جوشن يطفى لاعج الغل

يا ساكني البلد الأقصى عسى نفس

بين الأحصّ وبين الصّحّح الرمل (23)

طال المقام فوا شوقاً إلى وطن

وسافر محمد بن محمد الخضري إلى دمشق، فلم يطق اغترابه عن حلب، فغدا حرّان من الوجد

والشوق، فقال يخاطبها ويذكر بعض معالمها مثل العين والفيض<sup>(24)</sup>:

وجد إلى مربعك النضر

أَصْبَحْتُ فِي جَلْقِ حَرَّانَ مِنْ

## فیضِ غدتِ فائِضۃ تجری

وَالْعَيْنُ مِنْ شَوْقٍ إِلَى الْعَيْنِ وَالْأَلْبَتُّ

ومثلما اشتاق الشعراء إليها، في أثناء بعدهم عنها، اشتاقوا إلى أهلها، سواء أكانوا من أبنائها أم

نزلانها، أو من الملوك والخاصة أم العامة، فهذا ملكها الأيوبي الناصر يوسف الذي سافر عنها فمعه

شوقه إليها من التهويم، بل من النعاس، فلم يجد بداً من أن يرسل إليها تحياته على جناح السرعة مع

مسافر تحملہ ناقة سريعة شديدة أصيلة<sup>(25)</sup>:

عَذَابُهَا وَجَنَاءَ مَنْ نَسْلُ شَدَقِم

أَبَا رَاكِبًا يَطْوِي الْفَلَاةَ بِشَمْلَةٍ

وقل لهم: مشتاقكم لم يهـوم

إذا حلباً وافيتها حتى أهلها

وهذا أيضاً ابن العجمي أحمد بن عبد العزيز لم يُنسبه بعده عن حلب وأهلها حبه الكبير لهم في

حالتی القرب والبعد<sup>(26)</sup>:

وحالات حزون بیننا وسهوب

فيا حيرةَ الشهباءِ إنْ طال نأيُنا

فَسَيَّانَ مِنْكُمْ مُشْهَدٌ وَمَغِيبٌ

صَفَوْتُ لَكُمْ حَبًّا عَلَى الْقُرْبِ وَالنَّوَى

كما رأي أن يُعَدَّ عنها صَيَّر كل ما يلقاه من حسنات دهره ذنوباً، فقال<sup>(27)</sup>:

زمانی مع هذا البعد ذنوب

وكل الذي يأتيه من حسناته

<sup>22</sup> المصدر نفسه 102/2.

<sup>23</sup> الأحمص: موضع قرب حلب، الصحصصان: موضع بين حلب وتدمر (معجم البلدان 112/1، 394/3).

<sup>24</sup>الأعلاق الخطيرة 1/166.

<sup>25</sup> ذيل مرآة الزمان 2، اليوناني، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، 143/2.

<sup>26</sup> اعلام النساء 557/3.

27 المصدر السابق.



وكذلك رآها الشاعر ابن أبي طيَّ النجار أسَّ الفخار ومحلّ العلياء، مَنْ ملكها ملكَ الأرض كلها، فقال<sup>(34)</sup>:

هي أسُّ الفخار مَنْ نال أعلا  
وما تعلّاه مَنْ حلَّ فيها  
وما تعلّاه مَنْ حلَّ فيها  
وما تعلّاه مَنْ حلَّ فيها

هذا غيض من فيض مما قاله الشعراء في حلب وعنها في العصر الأيوبي الذي أخذت فيه حلب حيزاً كبيراً من شعر شعرائه الذين أحبوا حباً جمّاً، وتساووا جميعاً في هذا الحب، سواء أكانوا من أبنائها أم من غير أبنائها الذين اتخذوا منها موطناً أنساهم بلادهم وأهليهم، فمدحوها جميعاً، ووصفوها واشتاقوا إليها، وبكوها إذا ابتعدوا عنها بأشعار صادقة رقيقة وعواطف ساخنة، كما بدّوا قصائدهم بتحياتها تحية حب وإجلال وإكبار، ودعوا لها بالسقيا على عادة الأقدمين، ووصفوا معالمها، ومدحوا أهلها، وأعطوها حقها من التقدير والتبجيل، وتحدثوا عما وجدوه فيها من منزلة ومنعة وإباء، شأنهم معها شأن كل الشعراء معها في كل زمن من الأزمان، لذلك لا غرو إذا اختارتها الأمة الإسلامية — هذا العام — عاصمة للثقافة الإسلامية.

